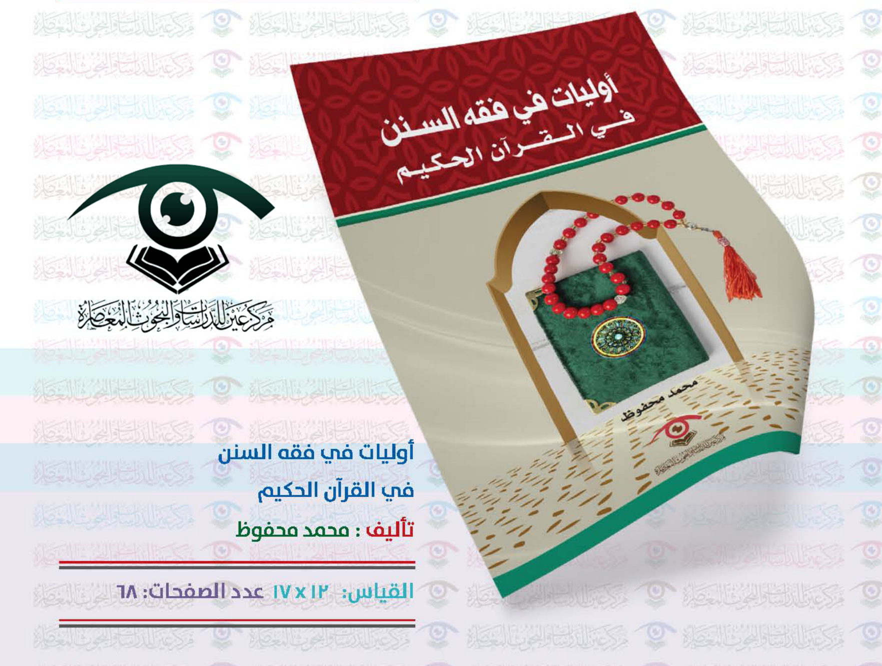

أوليات في فقه السنن
في القرآن الحكيم
محمد محفوظ
مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة
أوليات في فقه السنن
في القرآن الحكيم
تأليف : محمد محفوظ
القياس: ١٢ x ١٧ عدد الصفحات: ٦٨

أوليات في فقه السنن
في القرآن الحكيم



الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات أو أفكار يتبناها مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة وإن كانت تقع في دائرة اهتماماته وأولوياته





الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

من أهداف مركز عين:

مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامي، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموذج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعي الاجتماعي بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة في المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفي، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان في أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا نمانع من دراسات تنطلق من التسامح في التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..



كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهي تحاول التأسيس من منطلقات اسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..



المقدمة

كلما تسارعت الأحداث ، وازدادت التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية في الأمة والعالم ، تبلورت وألحت حاجتنا إلى التواصل مع القرآن الحكيم والتدبر في آياته واستنباط الرؤى والبصائر من سوره ومفرداته الثاوية فيها قيم الإسلام وتطلعات الرسالة .

وذلك لأنه لا يمكن القبض على تجاه هذه التحولات والتطورات ، والاستفادة من فرصهما ، بدون مرجعية فكرية وحضارية نستند عليها في هذا الجو المحموم بالصراعات الفكرية والسياسية والحضارية ، لتحديد الرؤية وضبط الاتجاه وتفعيل المنجز الثقافي والحضاري .

والقرآن الحكيم هو مرجعيتنا الفكرية التي نستند عليها ونستنبط منها رؤى الحياة وبصائر البناء والعمران . لأن القرآن الحكيم جاء يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين بالمستقبل الواعد . إذ قال تعالى ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**﴾ (الإسراء :٩).

من هنا فإن التواصل مع القرآن الحكيم ، والتدبر في آياته، هو من أجل بيان هداية الله تعالى في مختلف مجالات الحياة الإنسانية . وبهذه الممارسة التواصلية نبقى وتبقى الصلة بالقرآن الحكيم ، ويكون حاضرا في حياتنا باستمرار ، يرشد ويوجه ، يصحح ويقوّم ، ويهدي للتي هي أقوم ، ويبشرنا بسعادتنا الدنيوية وفلاحنا الأخروي .

فاللجوء إلى القرآن ، ليس هروبا من الواقع ومشاكله ، وإنما هو من أجل قراءته والتدبر في آياته ، ومعرفة بصائره التي تنير لنا دروب الواقع وتبلور لنا آفاق الحياة . وبهذا يتحول القرآن الحكيم إلى منهج حياة ومشروع هداية وإرشاد وتوجيه ، وليس أوراقا لكتابة التعويذات تقذفنا في عالم الخرافة والتواكل.

فالمطلوب هو التواصل الحقيقي والحيوي مع حقائق التوحيد والإيمان والهداية والتزكية والإنسان التي يطرحها الذكر الحكيم ، ويجعل منها حقائق مركزية وثابتة وذات علاقة صميمية ومباشرة بوجود الإنسان في هذه الحياة . وذلك لأن هذه الحقائق هي التي تضفي على حياتنا معاني الخير

والسعادة ، وبدونها لا نكون إلا في بوار .. إذ قال تعالى ﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن أتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ (سورة طه :١٢٣ـ١٢٤).

والكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ هو توسعة لورقة قدمت إلى مؤتمر (التحولات الاجتماعية على ضوء القرآن الكريم) المنعقد في مدينة سيهات في شهر رمضان لعام ١٤٢٤هـ . وهو محاولة للتعرف على سنن الحياة والتاريخ من خلال آيات الذكر الحكيم . وذلك لأننا نعتقد أن التقدم الإنساني وبناء الحضارات في عالم الإنسان ، ليس وليد الصدفة أو الجهد البشري العشوائي . وإنما هو نتاج طبيعي للالتزام بجملة النواميس والسنن التي بثها الباري عز وجل في هذا الوجود . والمجتمعات الإنسانية لا يمكن أن تتقدم بعيدا عن هذه النواميس ، فهي رافعة الأمم والمجتمعات ، وهي التي تحدد المسار الحقيقي لها . لذلك فإننا بحاجة ماسة للاقتراب

من هـذا الحقـل المعرفـي الهـام الـذي يبلـور لنـا سـنن الصـعود والارتقاء ، كما يحذرنا من نـواميس التراجـع والهزيمـة . وهـذا الكتاب هو جهـد أولـي علـى هـذا الصـعيد ، أرجـو مـن العلـي القدير أن أكون قد وفقت إلى ذلك ..

ومن الله نسأل التوفيـق والسـداد ، إنـه نعـم المـولى ونعـم النصير.

تمهيد

ثمة حقيقة أساسية يبرزها النص القرآني، وهي أن الإنسان هو صانع حركة الحياة ضمن السنن الكونية والاجتماعية التي تمثل القوانين التي أودعها الله سبحانه في الكون وفي حركة الإنسان في المجتمع. لذلك يقول تبارك وتعالى ﴿ **ذلك بأن اَلله لم يكُ مغيرا نعمةً أنعمَها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأنَ اَلله سميعُ عليم**﴾[1].

فالإنسان يتحرك في الحياة من خلال أفكاره ، وحركة الأفكار هي التي تمثل حركة الحياة ، لأن حركة الحياة هي صورة ما نفكر به. لذلك كله فإن التغيير الذاتي على مستوى الطبائع والأفكار

والقناعات ، هو قاعدة التغيير الاجتماعي والسياسي. فقضايا الاجتماع الإنساني لا تتغير وتتحول إلا بشرط التحول الداخلي ـ الذاتي ـ النفسي. فالتعاليم القرآنية واضحة في أن هذا الكون وحياة الإنسان سننا وقوانينا ، هي التي تتحكم في مسيرة

(١)القرآن الحكيم ، سورة الأنفال ، آية (٥٣).

الكون ، كما أنها هي القوانين المسيرة لحياة الإنسان الفرد والجماعة.

فالإنسان في المنظور القرآني ، هو نفحة ربانية استحقت التكريم الذي بوأها أعلى مرتبة في الوجود. أعني الاستخلاف في الأرض بصريح الآية الكريمة ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾[٢].

ومن أجل ذلك استحق الإنسان التكريم بقوله تعالى ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾[٣]. وحتى يحقق الإنسان وظيفته على أحسن وجه كان كل ما في الوجود مسخرا لفائدته ﷺ وكان العالم مسرحا لكل فعالياته بصريح آيات قرآنية عديدة منها قول

(٢)القرأن الحكيم ، سورة البقرة ، آية (٣٠).

(٣)القرآن الحكيم ، سورة الإسراء ، آية (٧٠).

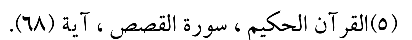
الباري عز وجل ﴿**ألـم ترى أنً اَلله سخرَ لكـم مـــا فــي الأرضِ والفلــكَ تجـري فــي البحـرِ بأمـــرهِ وَيُمســـكُ السمــاء أن تقعَ علــى الأرض إلا بإذنه إنً اَللــه بالنــاس لرءوفُ رحيم**﴾ [٤]. والكائن الإنساني في الرؤية القرآنيـة ، لـه القدرة والاستطاعة على ممارسـة الحريـة والاختيـار. بمعنـى أن الفعل الإنساني ليس خاضعا لمقـولات القسـر والجبر كمـا أنـه ليس بعيدا عن قوانين الله وأنظمته في الكون والمجتمع. أي أن الباري عز وجل هو خـالق أفعـال الإنسـان ، لأنـه بجميـع أفعالـه مخلوق الله ، ولكن مع ذلك له استطاعة يحـدثها الله فيـه مقارنـة للفعل.

لـذلك فـإن الإنســان مكتسـبا لعملـه ، والله سـبحانه خـالق لكسـبه. فالفعـل الإنسـاني فـي مختلـف دوائـره ووجـوده ، هـو خاضع لمنظومة من القيم والسنن والتي ينطلـق الفعـل الإنسـاني من خلال الالتزام بهذه المنظومة. فالإنسان ليس خالقا لأفعالـه ، كما أنه ليس مجبورا في أفعاله وإنما هو (لا جبـر ولا تفـويض

(٤)القرآن الحكيم ، سورة الحج ، آية (٦٥).

وإنما هـو أمر بـين أمـرين). لــذلك يقـول تبـارك وتعـالى ﴿ **وربــك يخلُقُ ما يشاءَ ويختارُ مـا كـــان لهـم الِخـــيرةُ سبحــانَ اللهِ وتعالى عما يُشركون** ﴾[٥].

وجاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) أن (الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقـون ، والله أعـز مـن أن يكون في سلطانه ما لا يريد). فإرادة الله هي التي صنعت إرادة الإنسان. والإنسان هو الكائن الوحيد الذي اختار أن يكون قدره أكثر من إمكان واحـد ، وأوفـر مـن احتمـال واحـد فـي الزمـان والمكان.



(٥)القرآن الحكيم ، سورة القصص ، آية (٦٨).

الفصل الأول
في معنى السنن

وتعرف السنن بأنها مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله ، وتتحرك بمقتضاها الحياة. وإن الدعوة القرآنية الدائمة إلى استنطاق التاريخ واستقراء الحوادث والأسباب وأخذ العبر والدروس منها ، هي إشارة قرآنية واضحة إلى ضرورة استيعاب القوانين والسنن الربانية في مسيرة الأمم والمجتمعات. فالتأمل في أحوال الأمم ، هو من أجل اكتشاف السنن الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ [٦]. فالذكر الحكيم يدعو الناس جميعا إلى دراسة سنن الله في الأرض ، وقوانينه الربانية التي تحكم الواقع الإنساني في كل أطوار الحياة ، لأخذ العبرة والدروس والاستفادة منها في مواجهة المخاطر والتحديات ، وبناء الراهن وفق مقتضيات هذه السنن والقوانين.

---

(٦)القرآن الحكيم ، سورة آل عمران ، آية (١٣٧).

وعلى هدى هذا بإمكاننا القول : أن الباري عز وجل يريد من المؤمنين أن ينطلقوا في ساحات الحياة من موقع الوعي والمعرفة ، حتى يتمكنوا من الكسب الدنيوي والأخروي.

والتداول بين الناس من الحقائق والسنن الربانية الثابتة ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ ، لذلك فإن الهزائم والنكبات ليست حالة ثابتة في أي مجتمع من المجتمعات ، كما أن الإنتصارات والكسب المادي ليست من الحالات الثابتة في حياة الأمم والمجتمعات . فقد ينتصر المهزوم في معركة جديدة ، إذا أخذ بأسباب النصر ، وقد يهزم المنتصر في المعركة القادمة ، إذا تخلى عن أسباب القوة والانتصار.

فالسنة الربانية تدفعنا دائما وفي كل الأحوال ، إلى التوازن . فلا ييأس المهزوم من النصر فيظل يلاحق التجارب الإنسانية التي تقود إليه ، ولا يطغى المنتصر أو يستعلي بانتصاره فيستسلم للنتائج بدون وعي وقدرة .

إننا ينبغي أن نواجه الحياة بكل أطوارها ومنعطفاتها ، بروح متوازنة ، واثقة ، نجدد بها حياتنا وتتوازن حركاتنا ومواقفنا . فلا الهزائم تزلزل نفوسنا ، وتدخل الريبة والشك إلى

ثوابتنا ، ولا الانتصارات تخرجنا من سياق بناء القوة النوعية واليقظة التامة .

وهناك إرادة ربانية متجهة إلى بيان السنن التي تحكمت في مسار الأمم عبر التاريخ إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم** ﴾[٧] .

والسنن في القرآن على نحوين : النحو الأول السنن الحتمية والجزمية ، من قبيل سنة الفناء إذ قال تعالى ﴿ **كل من عليها فان**﴾[٨] . والنحو الثاني السنن الإختيارية التي هي مرهونة بإرادة الإنسان الفرد والمجتمع من قبيل سنة التغيير والتداول والإيمان والتقوى إذ قال تعالى ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾[٩] .

---

(٧)القرآن الحكيم ، سورة النساء ، آية (٢٦).

(٨)القرآن الحكيم ، سورة الرحمن ، آية (٢٦).

(٩)القرآن الحكيم ، سورة الأعراف ، آية (٩٦).

كما أن سنة الاستخلاف والتمكين في الأرض منوطة بالأيمان والعمل الصالح. كما أن السقوط يبدأ حينما يتخلى المجتمع أو الأمة عن العبادة الحقة ويتجهوا إلى عبادة الأصنام والطواغيت والشهوات. وإذا استفحل الفساد واستشرى الظلم وفسق الناس عن أمر ربهم حق عليهم قول الباري ﴿ **فدمرناها تدميرا** ﴾[(١٠)].

فالسقوط والانكسار والهزائم هو نتاج ما تكسبه أيدي الناس إذ قال تعالى ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير** ﴾[(١١)]. فالظلم والطغيان وهو أحد كسوب الإنسان السيئة ، هي سبب مباشر للهلاك والخسران والدمار. قال تعالى ﴿ **وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾[(١٢)]. وأعظم ظلم يمكن للإنسان أن يقترفه هو

---

(١٠)القرآن الحكيم ، سورة الإسراء ، آية (١٦).

(١١)القرآن الحكيم ، سورة الشورى ، آية (٣٠).

(١٢)القرآن الحكيم ، سورة القصص ، آية (٥٩).

الشرك قال تعال ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[13]. لأنه تشويه لفطرة الإنسان وإغراقها في المعاصي والآثام وتكذيب لحقائق التوحيد. والذي يحول دون الهلاك بفعل الظلم هو الإصلاح وتوفر المصلحين في الفضاء الاجتماعي لذلك يقول تبارك وتعالى ﴿ **فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾[14]. باستمرار المجتمعات الإنسانية ، بحاجة إلى طليعة وصفوة تمارس دور الإصلاح ومحاربة الظلم. وإن تقدم المجتمعات دائما مرهون إلى حد بعيد على حيوية وفعالية هذه الطليعة . فهي التي تمنع إنهيار المجتمع وتحافظ على حيويته ودوره في مقاومة كل مظاهر الفساد الاقتصادي والسياسي والأخلاقي .

(١٣)القرآن الحكيم ، سورة لقمان ، آية (١٣).

(١٤)القرآن الحكيم ، سورة هود ، آية (١١٦-١١٧).

فحينما تغيب الجماعة المصلحة أو الطليعة الرسالية أو تتراخى عن ممارسة دورها فإن الطغيان والفساد ينمو ويبرز في المجتمع. وأي فساد أعظم من الإستعلاء على الناس والاستبداد بهم ، وإقامة الحواجز بينهم وبين أئمة الهدى ودعاة الحق .. إنها الجريمة الكبرى التي تهدد العمق الإنساني ..

لذلك ومن خلال هذه الحقيقة نستطيع القول : أن بناء الجماعة المؤمنة التي تأخذ على عاتقها مهمة إصلاح المجتمع ومقاومة كل العناصر التي تفضي إلى الفساد بكل مستوياته ومجالاته ، هو الذي يحول دون غضب الله سبحانه وتعالى على هذا المجتمع وانهياره وتراجعه الدائم.

لذلك فإن حصن المجتمع وخط دفاعه الأول ، هو وجود الجماعة المصلحة التي يسميها الذكر الحكيم ﴿ **أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض** ﴾..

فالمجتمعات إذا نأت وأبتعدت عن قيم الدين ، فستفسد فسادا يقود إلى هلاكها. وهذا يعني أن المجتمعات دائما بحاجة إلى مصلحين يمارسون عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفادي الهلاك والإنكسار. أما إذا غاب المصلحون

عن المجتمع ، فإن ذلك يوقف عملية العمران الحضاري ، ويجعل المجتمع بأسره عرضة للفساد المفضي إلى الهلاك سواء كان ذلك فسادا في الطبيعة المادية أو العلاقات الإنسانية أو فيهما معا.

" والحرية بوصفها مصدر المسؤولية ، لا تفضي بالكائن البشري إلى اختيار الحق والعدل والخير بالضرورة . بل تجعل الاختيار مفتوحا على جميع الاتجاهات والاحتمالات. لذلك كان التاريخ البشري حافلا باختيار الظلم والشر إلى جانب العدل والخير ، وكان الإنسان مسؤولا عن ذلك كله . أما الكائنات الأخرى ، فليست مسؤولة عما يعرض لها أو بسببها لأنها ليست كائنات مختارة " (١٥)

والإنسان لا يمكن أن يمارس حريته أو يتحمل مسؤوليته بعيدا عن سنن الله سبحانه في الكون والاجتماع الإنساني. إذ أن

(١٥)السيد محمد حس الأمين ، الاجتماع العربي الإسلامي ـ مراجعات في التعددية والنهضة ، ص٩ دار الهادي ،٢٠٠٣م.

الإنسان يمارس حريته على قاعدة العمل وفق سنن الله في المجتمع.

وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع القول : أن الحرية الإنسانية ، لا تعني بأي حال من الأحوال التفلت من السنن الربانية أو تجاوز بديهيات الاجتماع الإنساني.

وإنما هي تعني السير في الحياة والمجتمع على هدى هذه القوانين والسنن . وكلما التزم الإنسان بهذه السنن ومقتضياتها ، تمكن من ممارسة حريته على أكمل وجه .

كما أن تراجع الإنسان عن الإلتزام بهذه السنن الإلهية ، فإنه يفضي إلى غياب القدرة الحقيقية لدى الإنسان عن ممارسة حريته.

فالحرية الحقيقية تبدأ لدى الإنسان ، من خلال التزامه بسنن الله في الاجتماع الإنساني . ولا يمكن أن نتصور الحرية الإنسانية بعيدا عن نواميس الله سبحانه في الكون والوجود .

فالعلاقة جد عميقة بين ممارسة الحرية الإنسانية بفهم وإدراك واستيعاب طبيعة السنن الربانية في الاجتماع الإنساني.

فالحرية تستلزم المسؤولية الإنسانية ، ولا يمكن ممارسة الحرية على الصعيد الواقعي ، بعيدا عن مبدأ المسؤولية ومقتضياتها الخاصة والعامة . لذلك نجد أن الذكر الحكيم يؤكد على هذه المسؤولية الإنسانية في ظل الحرية والقدرة على الاختيار .. إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾[١٦].

ويقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة .. " استئناف ابتدائي أفاد الأنباء عن سنة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين العالم وما فيه وبخاصة الإنسان ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربهم ومعاملات بعضهم مع بعض بمقدار جريهم على هذه السنة ورعيهم تطبيقها فيكون عرضهم أعمالهم على معيارها مشعرا لهم بمصيرهم

(١٦)تفسير التحرير والتنوير ـ المجلد الحادي عشر ، ص ١٢٤ ، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

ومبينا سبب تفضيل بعضهم على بعض واصطفاء بعضهم من بين بعض "[17].

فإنسانية الإنسان في جوهرها وعمقها مرهونة بحرية الإنسان . إذ أن الحرية هي شرط إنسانية الإنسان. وحينما يفقد هذا الشرط ، يفقد الإنسان مضمونه وجوهره الحقيقي .. لذلك نجد أن مهمة الأنبياء عبر التاريخ الإنساني هي إعادة الإنسان إلى إنسانيته ، وإخراجه من ظل عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ..

فقد جاء في الحديث الشريف " إن الله تبرك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وآله بالحق ليخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته ، ومن عهود عباده إلى عهوده ، ومن طاعة عباده إلى طاعته ، ومن ولاية عباده إلى ولايته " [18].

فوظيفة الأنبياء والأوصياء الربانية ، هي حماية الإنسان من كل العوامل المضادة الداخلية كأتباع الهوى والشهوات ،

---

(١٧)المحمدي الريشهري ، ميزان الحكمة ، المجلد التاسع ص ٣١٧ ، مكتب الإعلام الإسلامي ، إيران ١٤١٢هـ.

(١٨)القرآن الحكيم ، سورة الرعد ، آية (١١).

والخارجية كالخضوع للطاغوت . وتوفير الأرضية المناسبة لكي يمارس الإنسان دوره في خلافة الأرض بعيدا عن نزعات الأثرة والاستفراد والطغيان..

الفصل الثاني
التحول الذاتي .. وإرادة الإنسان

إن حياة الجمود والركود والسقوط التي تعيشها المجتمعات والأمم في بعض مراحلها وحقبها ، منوط ومرهون للخروج من هذه الوهدة بعزائم البشر وإرادة الإنسان ومشروطا بالتزام هذه المجتمعات بشروط الخروج من المأزق وعوامل الإنعتاق من أساس الجمود والخمود.

ففعل التغيير والتطوير دائما وفي أي تجاه وحقل كان ، منوط بإرادة الإنسان ، فهو الذي يقرر بقدراته وإرادته إمكانية التطوير والتغيير من عدمها.

ويشير إلى هذه الحقيقة القرآن الحكيم ، إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ **إن اللَه لا يغيرُ ما بقوم حتى يُغيروا ما بأَنفُسِهِم** ﴾(١٩).

فلا يمكن أن يتم التغيير الاجتماعي إلا بتغيير الذوات وتهيئتها لقبول متطلبات التطوير ، وبدون تغيير النفس ، تبقى

(١٩)القرآن الحكيم ، سورة الأحزاب ، آية (٧٢).

شعارات التغيير ويافطات التطوير أشبه شيء بمشروعات أحلام اليقظة والآمال البعيدة.

كما أن إرادة البشر وعزائمهم ، هي التي تحدد واقعية المسار التطويري والتحديثي ، فلا تطوير اجتماعي إلا بتغيير للذات. وكلما توسعت دائرة الملتزمين بمشروع التغيير الذاتي ، أي تغيير ما بالنفس ، كلما كان المجتمع اقرب إلى التطوير الشامل.

فالباري عز وجل لم يخلق الإنسان " خلقا جامدا خاضعا للقوانين الحتمية التي تتحكم به فتدبره وتصوغه بطريقة مستقرة ثابتة ، لا يملك فيها لنفسه أية فرصة للتغيير وللتبديل ، بل خلقه خلقا متحركا من مواقع الإرادة المتحركة التي تتنوع فيها الأفكار والمواقف والأفعال ، مما يجعل حركة مصيره تابعة لحركة إرادته ، فهو الذي يصنع تاريخه من خلال طبيعة قراره المنطلق من موقع إرادته الحرة ، وهو الذي يملك تغيير واقعه من خلال تغييره للأفكار والمفاهيم والمشاعر التي تتحرك في واقعه الداخلي لتحرك الحياة من حوله.

وهكـذا أراد الله للإنسـان أن يملـك حريتـه ، فيتحمـل مسؤوليته من موقع الحرية.. ويدفعه إلى أن يواجه عملية التغيير في الخارج بواسطة التغيير في الداخل ، فهو الـذي يستطيع أن يتحكم بالظروف المحيطة بـه ، بقـدر علاقتهـا بـه ، ولـيس مـن الضروري أن تتحكم به . فالإنسان هو صانع الظروف ، ولست الظروف هي التي تصنعه "[٢٠]

والدين الإسلامي لا يعالج مشاكل البشر بحلول سحرية أو طرائق إعجازية ، وإنما منظور الإسلام فـي معالجـة مشـكلات البشـر المختلفـة ، هـو العنايـة بتهـذيب الـنفس وتطهيرهـا مـن الرواسب والشوائب ، حتـى تكـون مهيـأة بشـكل تـام لعمليـات التغييـر والخـروج مـن آثـار المشـكلات التـي تـؤرق الإنسـان والمجتمع المسلم.

لـذلك نجد أن القـرآن الحكـيم يؤكـد علـى إتبـاع العلـم ومفارقـة الجهـل والظـن وكـل المفـردات التـي لا تـؤدي إلـى

(٢٠)السـيد محمـد حسـين فضـل الله ، تفسـير مـن وحـي القـرآن ، المجلـد السادس ، ص ٣١ ـ٣٢ ، دار الزهراء ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٦م.

المعرفة والخبرة ، قال تعالى ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[21].

فـ " المسؤولية هي ذات التوحيد ، واللامسؤولية هي ذات الشرك ، بل أن التهرب من المسؤولية والتبرير إنما هما الهدف من وراء الشرك " [22].

وقال تعالى ﴿**وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا**﴾[23].

وذلك لأن إتباع الظن لا يؤدي إلا إلى مراكمة الأخطاء والمشاكل ، وذلك بفعل البعد عن اكتشاف العوامل الحقيقية والفعلية للمشكلات الإنسانية. ولهذا قال علماء المنطق أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، ولا ريب أن الظنون

---

(٢١)القرآن الحكيم ، سورة الإسراء ، آية (٣٦).

(٢٢)السيد محمد تقي المدرسي ، من هدى القرآن ، الجزء السادس ، ص ٢٢٧ ، البيان العربي ، بيروت.

(٢٣)القرآن الحكيم ، سورة النجم ، آية (٢٨).

والاحتمالات ، لا تؤسس لدى الإنسان تصورا دقيقا عن طبيعة المشكلات وطرق معالجتها.

فالتوجيه القرآني يحثنا دائما على التمسك بالعلم وأسبابه ، بحيث تكون كل مواقفنا وقناعاتنا أساسها المعرفة والحجة والبرهان ، حتى نتحرك بهذه الأفكار والقناعات من موقع الوعي العميق بها. وذلك لأن هذا الوعي العميق بها ، هو الذي يؤسس للإرادة الصلبة التي لا تعرف السأم والملل.

فالإنسان يصاب بالعطالة إذا كانت إرادته خائرة وعزيمته واهنة، لذلك فإن حجر الزاوية في عملية التغيير وتذليل المشكلات التي تعترض طريق الإنسان والمجتمع ، هو أن تكون لدى الإنسان إرادة وعزيمة راسخة للخروج من شرنقة المشاكل وبؤر الأزمات والمآزق التي يعيشها. فتوفر الإرادة والعزيمة ، من الشروط الأساسية التي يعتبرها الدين الإسلامي في معالجة مشكلات البشر.

" فالتوجيهات الإسلامية في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، تطلب ـ في البدء ـ تعزيز الذات وتغييرها المتواصل إيمانيا ، ثم تمضي باتجاه الأسرة الأقرب إلى الإنسان

الفرد ، في علاقاته الخارجية ، ومن هناك تنداح الدائرة باتجاه الجار ، والقربى ، والحي والمدينة ، فالمجتمع المسلم ، فالأمة الإسلامية على امتدادها ، فالشعوب والأمم المجاورة ، فالإنسانية جمعاء .

إن بؤرة الحركة ، هي الذات : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[٢٤].

وحدها الأخر ، هو البشرية ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٢٥]. وما بين الذات والبشرية ، تتحرك المعطيات الإسلامية ، تشريعا وتوجيها ، لكي ترسم لكل حالة طريقها ، وتضع كل ممارسة في مكانها الموزون ولكي ما يلبث هذا الجهد الديناميكي ، الذي لا يقف عند حد أن يساهم في صياغة الحياة الإسلامية المتوازنة المستقيمة ، الآمنة ، السعيدة ،

(٢٤)القرآن الحكيم ، سورة الأنفال ، آية (٥٣).

(٢٥)القرآن الحكيم ، سورة الأنبياء ، آية (١٠٧).

القـديرة علـى العطـاء وبقطبيهـا الفـرد المسـلم والمجتمـع المسلم"[٢٦].

فالخطوة الأولى التي ينبغي أن نقوم بها إزاء كل ظاهرة ومشكلة هي البحث والفحص الجاد عن الأسباب الذاتية التي أدت إلى هذه الظاهرة أو المشكلة ، فلا بد أن نوجه الاتهام أولا إلى أنفسنا ، قبل أن نوجهه إلى غيرنا.

وهذه المنهجية تلخصها الآية القرآنية ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ فإزاء كل هزيمة ، إزاء كل مرض وظاهرة سيئة ، كل مصيبة على رؤوسنا ، ينبغي أن نلتفت قبل كل شيء إلى نصيبنا ، إلى دورنا ، إلى ما كسبته أيدينا.

إن واقع العرب والمسلمين الراهن هو أسوأ واقع ، والانهيار في حياتهم يهدد وجودهم نفسه ولكن ؟ أين يمكن أن يقف هذا الانهيار ، ويبدأ التحول ؟ جوابنا الحاسم ؟ في أنفسنا ، يجب أن يقف في أنفسنا الانهيار ، ويبدأ في أنفسنا

(٢٦)عماد الدين خليل ، رؤية إسلامية في قضايا إسلامية معاصرة ، ص ٥٥ ، كتاب الأمة ، العدد ٤٥ ـ السنة الخامسة عشرة ، محرم ١٤١٦هـ

التحول فإذا تحولنا إلى مسلمين حقيقيين كما يريد الإسلام ، تحول بنا مجتمعنا وتحول بنا المسلمون في كل مكان وتحول بنا العالم.

فالنواة الأولى للتطور النوعي في المجال العربي والإسلامي اليوم ، هي في تغيير الذات وإزالة رواسب التخلف والانحطاط منها ، إن تغيير ما بالنفس ، هو النواة الأولى لعمليات التطور النوعي وإحداث نقلة عميقة في نمط تعاملنا مع واقعنا ومحيطنا.

فالتحولات الاجتماعية والحضارية في أي مجتمع وأمة ، لا تنجز إلا على قاعدة تغيير ذاتي عميق ، يزيل ركام الانحطاط ، ويهيئ النفوس والعقول لاحتضان وممارسة متطلبات التحولات الاجتماعية والحضارية المطلوبة.

وعلى قاعدة التغيير الذاتي المستديم ، تأتي أهمية الإرادة الإنسانية التي هي وسيلة الانتقال من الوعد إلى الإنجاز ومن القول إلى الفعل.

والإرادة هنا تعني وبكل بساطة : أن تطور الشعوب والأمم لا يقوم به الغير ، وإنما كسب الأمة ذاتها ، هو الذي يحقق

التطور ، فعمل الأمة وسعيها المتواصل ، وجهدها المستديم وتصميمها القوي ، وإيمانها العميق بمسارها الحضاري وتضحياتها في هذا السبيل ، كل هذا هو الذي يصنع التطور والتقدم.

فإرادة الإنسان هي الفيصل وهي محل المراهنة الحقيقية على مشروعات التقدم والتطور.

فلنغير ذواتنا ، ونغذي هذا التغيير ، بإرادة إنسانية تأخذ على عاتقها إنجاز التطلعات وتحقيق الطموحات.

وسنبقى بعيدا عن كل إنجاز اجتماعي وحضاري مادامت قيم التخلف وتصورات الانحطاط تتحكم في عقولنا ومسارنا العام.

فلكي نتقدم ، نحن بحاجة إلى تغيير نفوسنا وتنقية عقولنا من ركام التخلف والانحطاط ، وإرادة إنسانية تأخذ على عاتقها بالنفس الجديدة والعقل الجديد صنع وقائع الحياة المعاصرة.

ودائما التقدم الإنساني والتطور الحضاري ، بحاجة إلى إرادة إنسانية صلبة ، تأخذ على عاتقها ترجمة الآمال ، وإنجاز

الوعود ، وخلق الوقائع والحقائق المفضية إلى التقدم بكل صوره وأشكاله .

وينبغي أن ندرك في هذا المجال ، أن استعارة سلع التقدم والتطور ، لا يفضي إلى المفهوم الحقيقي للتقدم الحضاري ، وإنما يؤدي إلى حالة من التجاور العجائبي والتعايش المتغاير بين سلع التقدم ومنجزات التطور وممارسة إنسانية لا ترقي إلى المستوى المطلوب في التعامل مع منجزات العصر الحديث.

إن بوابة التقدم الحقيقي ، هي تغيير الذات المصحوب بإرادة إنسانية تحيل الطموحات إلى حقائق ، والآمال إلى وقائع ، والأرض اليابسة إلى أرض خصبة خضراء ، تثمر كل الخير والإنجاز إلى الإنسان حاضرا ومستقبلا.

وعليه فإن تطوير واقع الحرية في الحياة الإنسانية ، يتوقف على الإرادة الإنسانية التي ينبغي أن تتبلور باتجاه الوعي بهذه القيمة الكبرى أولا ، ومن ثم العمل على إزالة كل المعوقات والكوابح التي تحول دون الحرية .

فالحرية في الواقع الإنساني لا توهب ، وإنما هي نتاج كفاح إنساني متواصل ضد كل النزعات التي تعمل على

إخضاع الإنسان وإرادته . سواء كانت هذه النزعات ذاتية مرتبطة بحياة الإنسان الداخلية ، أو خارجية مرتبطة بطبيعة الخيارات السياسية والاقتصادية والثقافية ، التي قد تساهم في إرجاء الحرية أو تعطيلها ووأد بذورها الأولية وموجباتها الأساسية .

وما دام الإنسان يعيش على ظهر هذه البسيطة ، سيحتاج إلى الحرية التي تمنحه المعنى الحقيقي لوجوده . ولكي ينجز هذا المعنى ، هو بحاجة إلى إرادة وكفاح إنساني لتذليل كل العقبات التي تحول دون ممارسة الحرية الإنسانية على قاعدة الفهم العميق لطبيعة عمل سنن الله سبحانه في الاجتماع الإنساني.

من هنا ومن خلال هذه المعادلة التي تربط الوجود الإنساني برمته بالحرية والإرادة والمسؤولية ، فإن الكدح الإنساني سيتواصل ، والشوق الإنساني إلى الحرية والسعادة سيستمر ، والاحباطات والنزعات المضادة ستبقى موجودة وتعمل في حياة الإنسان.

لذلك فإن الوجود الإنساني هو عبارة عن معركة مفتوحة بين الخير الذي ينشد الحرية والسعادة والطمأنينة القلبية ، والشر الذي لا سبيل لإستمراره إلا البطر والطغيان والإستئثار .

ولكي ينتصر الإنسان في معركته الوجودية ، هو بحاجة إلى الإيمان والعلم والتقوى ، حتى يتمكن من هزيمة نوازعه الشريرة وإجهاض وتهذيب نزعات البطر والطغيان .

فلا حرية حقيقية للإنسان بعيدا عن نطاق الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ولا إيمان مكتمل الأركان بدون تحرر الإنسان من شهواته وأهوائه الداخلية من جهة ، وتحرره من الطغيان والشرك السياسي من جهة أخرى .. و" إن أعمق مفهوم عرفه الإنسان للحرية هو المفهوم القرآني ، الذي ينطلق من عقد العبودية الذي يقيمه الإنسان بينه وبين الله ، وهو عقد يحصر العبودية بالله وحده ، وبمجرد إبرام هذا العقد يصبح الإنسان محكوما بالحرية.. أي مسؤولا " [٢٧]

---

(٢٧)السيد محمد حسن الأمين ، الاجتماع العربي الإسلامي ، ص ١٢٩ ، مصدر سابق.

فالإيمان العميق بالله تعالى وإنه هو خالق الكون والإنسان ، يقابله أيضا الإيمان بحرية الإنسان ، لأن الباري عز وجل خلقه حرا وحمله مسؤولية واقعه ومصيره . وبالتالي يترتب على ضوء ذلك قانون الثواب والعقاب في الآخرة.

الفصل الثالث
حاجتنا إلى السنن

ثمة دوافع وحوافز عديدة ، تدفعنا إلى القول أن المجال العربي والإسلامي اليوم هو أحوج ما يكون إلى الفكر السنني والثقافة التي تستند في مشروعاتها وخططها و مآلاتها إلى نواميس الكون والحياة الاجتماعية العامة .

إذ أن التحولات الهائلة التي تجري في العالم اليوم، وعلى مختلف الصعد والمستويات ،لا يمكن فهمها والإمساك بناصيتها والتحكم في مسارها ومآلاتها، بدون فكر يستند إلى نواميس التطور الإنساني ، ويتناغم وقوانين الرقي والتقدم.

وذلك لأن فقدان الفكر السنني (وهو جملة القوانين والنواميس التي يسير وفقها الوجود الإنساني قاطبة) ، وعدم إدراك قوانين التطور الإنساني ، يؤدي إلى لهاث فوضوي وأبله إلى التحولات والمتغيرات الإنسانية الخاصة والعامة دون القدرة على التحكم في مسارها ومصيرها.

بينما الفكر السنني ، يوفر القدرة المناسبة للتحكم في مسار تطورات الحياة وتحولاتها المستمرة.

لذلك نجد أن الذكر الحكيم مليء بتلك الآيات التي توضح جملة السنن الكلية والجزئية ، التي تتحكم في مسار الإنسان والمجتمع والحضارة ، فيقول تبارك وتعالى.. ﴿ **يُريدُ اللهُ ليُبيّنَ لَكُم ويَهدَيكُم سُنَنَ الذين من قبلكُم ويتوبَ عليكم واللهُ عليمُ حكيم** ﴾ [(٢٨)]

فهذه الآية الكريمة توضح أن مصدر نواميس الكون وسنن الاجتماع الإنساني هو الله سبحانه وتعالى. ويقول عز من قائل ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [(٢٩)]. فهذه الآية توضح سنة أساسية من سنن التطور والتقدم ، وهي أن شرط التقدم ، هو إحداث تغيير جذري في نفس الإنسان وعقليته ، حتى يتسنى له إنجاز تقدمه وتطوره ، وبدون التغيير الذاتي أو تغيير ما بالنفس ، لن يتحقق تقدما وتطورا ، حتى لو امتلكنا عن طريق الاستيراد كل أشكال التقدم وسلع التطور المادية والاستهلاكية.

---

(٢٨)القرآن الحكيم ، سورة النساء ، آية (٢٦).

(٢٩)القرآن الحكيم ، سورة الرعد ، آية (١١).

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[30].

فبناء القوة الذاتية على المستوى الحضاري ، هو الكفيل للانعتاق من ضغوط الأعداء. فالإنجاز الحضاري لا يستجدى ولا يستعار ولا يستورد ، وإنما هو وليد قوتنا الحضارية. فمتى ما حقق المجتمع في ذاته وعلى مختلف المستويات مفهوم القوة الحضارية ، فإنه يحقق منجزاته الحضارية ، فبمقدار بناء القوة ، يكون الإنجاز ويتحقق التقدم.

فالمطلوب دائما تقوية نفوسنا ، وبناء واقعنا ، وبلورة كفاءاتنا ، وتحويل طاقاتنا الكامنة في ذواتنا إلى كيان واقعي . ولا شك أن بناء القوة الذاتية بحاجة إلى تظافر كل الجهود والطاقات ، حتى يتمكن المجتمع من بناء قوته وإمكاناته في مختلف الجوانب والأبعاد.

(٣٠)القرآن الحكيم ، سورة الأنفال ، آية (٦٠).

" وإذا كان جو الآية يوحي بوجوب الاستعداد بالحصول على القوة العسكرية ، فإننا نستوحي منها ضرورة الإعداد للقوة من نوع آخر . مما تحتاجه الأمة في تطويرها العلمي والاجتماعي والاقتصادي وفي موقعها السياسي بين الأمم الأخرى ، لأن ذلك يحقق لها الاكتفاء الذاتي ، أو التفوق الواقعي الذي يفسح لها المجال للتحرك بقوة من موقع استغنائها عن الآخرين ، أو من موقع حاجة الآخرين إليها فنستطيع بذلك أن نتخلص من الضغوط التي تحتاجها في علاقتها بالآخرين . وهذا هو الذي يلزم الأمة ـ بجميع أفرادها ـ أن تستنفر كل طاقاتها في سبيل الوصول إلى المستوى المتقدم في كل المجالات العامة التي تمثل أساس القوة في الحياة " (٣١)

فالحضارات (كسنة ثابتة) على مر العصور والدهور ، لا تبنى بأيدي الغير وعقولهم ، وإنما تبنى حينما يبني الإنسان

---

(٣١)السيد محمد حسين فضل الله ، تفسير من وحي القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، دار الزهراء ، بيروت ١٩٨٤م.

والمجتمع قوتهم العلمية والعملية والمادية ، التي تحدث تحولا نوعيا في مسيرتهما. هذا التحول النوعي يجعلهم جديرين بالبناء والتفوق الحضاري.

وفي مقابل سنن الصعود والتفوق الإنساني ، نجد أن القرآن الحكيم ، يوضح أيضا سنن الانحدار والتراجع والتقهقر الحضاري. فالظلم والترف والفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، والخروج من دائرة العبادة الربانية ، كلها عوامل وأسباب تؤدي إلى السقوط والانحدار . يقول تبارك وتعالى ﴿ **وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾[٣٢].

فالمجتمع الذي يأخذ بأسباب الكفر والانحدار ، ويخضع لضغوطات الانحراف والبعد عن الجادة ، فإنه يظلم نفسه ، لأنه يعرض راهنه ومستقبله لكل تأثيرات الانحراف وعدم الالتزام بالصراط المستقيم.

(٣٢)القرآن الحكيم ، سورة القصص ، آية (٥٩).

فـالمجتمع النـاجح هـو الـذي يطـرد مـن واقعـه عوامـل الانحدار والسقوط ، ويعمـق ويجـذر فـي واقعـه سـنن الصـعود والارتقاء.

ولا بد من القول في هذا الصدد. أن سنن التطور الإنساني ، سنن حيادية ، بمعنى أن المرء مهما كان جنسه أو لونه أو عرقـه أو دينه أو ميوله ، إذا لم يوفر في واقعه ومحيطه عوامـل التقـدم وأسـباب التطـور والنهضـة ، فـإن مآلـه هـو التـأخر والتخلـف ، وذلك لأن سنن التطور والتغيير لا تحابي أحدا ، ولا تعـرف إلا من يلتزم بها.

وأنظمـة السـنن الربانيـة فـي الكـون والاجتمـاع الإنسـاني ، تعلمنا أن من المهام الأساسية للإنسان في هذه الحياة هي عمارة الأرض وتحقيـق العمـران الإنسـاني. فعبـادة الإنسـان لله تبـارك وتعالى ، تشـمل كـل حيـاة الإنسـان ، فالعمـل الصـالح عبـادة ، والسعي إلى تحقيق المنجزات الحضارية التي تفيد الإنسان فـي مجالات حياته المختلفة ، هو جزء من الكدح الإنساني المتجـه صوب نيل رضوان الباري عز وجل .

فالـدين الإسـلامي لا يشـرع للإنسـان التـواني والكسـل والتواكل ، بل يحثه ويحفزه للعمل والمبادرة وصناعة الخير في مختلـف مجـالات الحيـاة. فالعبـادة الحقـة تسـتوعب وتشـمل الشـعائر العباديـة ، والنظـر العقلـي والبحـث العلمـي ، والتنميـة الاقتصادية ، والجهـاد المـدني الـذي يسـتهدف عمـارة الأرض والكون .

فالمنهج الرباني المرسوم للإنسان ، يقتضـي إطـلاق العقـل بالوحي ، واعمار الأرض بمنهاج رباني في مصدره ، إنساني في توجهه ، ويسع العالم كله في جهده وأخلاقه.

ولقد إهتم علماء الأمة ومفكروها بسنن الكون والاجتمـاع ، وأبدعوا في بيان موقع السنن وإرادة الإنسان وحريتـه ، ودوره تجـاه النـواميس ، وكـان للعلامـة إبـن خلـدون (١٤٠٥م) فضـل التأسيس فـي بلـورة فقـه سـنن العمـران والحضـارة فـي كتابـه (المقدمة) الذي يزخر بالعديد من الأمور والقضايا التـي يمكـن أن نصطلح عليها قوانين التقدم و العمران الحضاري.

ومن المفكرين المعاصرين الذي اهتموا بهذه المسألة (مالك بن نبي) (ت ١٩٧٣م) الذي وضح أن الحضارة تمر بثلاث مراحل :

مرحلة الروح ، وهي المرحلة التي تبزغ فيها الفكرة الدينية التي تبعث الروح في الإنسان والتراب والزمن. ثم مرحلة العقل ، وهي المرحلة التي تتفجر فيها طاقات الأمة الفكرية والعملية والحضارية وهي مرحلة الازدهار ، ثم مرحلة الغريزة وهي المرحلة التي تطلق فيها الشهوات والأهواء والنزوات من عقالها فيطغى عالم الأشياء في المجتمع ويضمحل عالم الأفكار.

وكذلك من المعاصرين الذين اهتموا بهذه المسألة (محمد باقر الصدر) (ت ١٩٨٠م) وقد ألف في هذا الشأن كتابا سماه " السنن التاريخية في القرآن " وأكد في هذا الكتاب على ثلاث حقائق أساسية مرتبطة بسنن التاريخ : الاطراد ، بمعنى أن السنة التاريخية مطردة ، فهي ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق ، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي.

وربانية السنة التاريخية وارتباطها بالله سبحانه ، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ ، هو قانون رباني. وهذا الارتباط يستهدف ربط الإنسان ، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون بالله سبحانه ، وإشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية ، والاستفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الساحات ، ليس انعزالا عن الله سبحانه ، لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن ، فهي إرادة الله وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون.

والحقيقة الثالثة ، هي حقيقة اختيار الإنسان وإرادته وإلا لا تعارض بين حرية الإنسان واختياره وبين سنن التاريخ.

فالساحة العربية والإسلامية اليوم ، هي بحاجة قصوى إلى ذلك النتاج الفكري والثقافي ، الذي يبلور سنن التطور والتقدم ، وأسباب الصعود والارتقاء ، حتى تكون جميع الجهود والطاقات في إطار سياق منسجم ومتناغم وسنن العمران الحضاري ، ونطرد من واقعنا العربي والإسلامي ، كل الأوهام والعوامل الذاتية ، التي تحول دون التقدم والتطور.

وهذا يتطلب بلورة الاهتمام الفكري والثقافي النوعي ، الذي يتجه إلى بلورة الفكر السنني ، وتعميق مفاهيمه وحقائقه في الفضاء الاجتماعي .

وذلك لأننا لا يمكن أن نخرج من مآزق الراهن ، بدون الفكر السنني ونواميس التغيير الاجتماعي وقوانين التقدم الإنساني. لأن إدراك هذه السنن يفتح لنا مساحات جديدة للفهم والممارسة ، للقول والفعل ، للراهن والمستقبل.

فلا تقدم حقيقي إلا بسنن وقوانين التطور ، ونخطئ الخطيئة الكبرى حينما نبحث عن تقدمنا وتطورنا بعيدا عن نواميس الكون في هذا المجال. وحتى يسود الفكر السنني الذي يلحظ قوانين التغير والتطور ، ويجعل مناشطه وأعماله منسجمة وتلك القوانين للواقع العربي والإسلامي من الأهمية بمكان التأكيد على النقاط التالية :

١- التفكير المتواصل والتأمل الجاد في الكتاب المقروء وهو القرآن الحكيم ، الذي يتضمن ثروات معرفية هائلة ، ويختزن في مفرداته وآياته نواميس الكون وقوانينه الكلية والجزئية.

وكذلك التأمل في كتاب الكون المسطور ، والتفكير في الآفاق والأنفس ، لما لهذا التفكير والتأمل الجاد من دور أساسي في إرساء دعائم الفكر والثقافة السننية في المجال العربي والإسلامي.

ولا بد في هذا الإطار من القول : إننا ينبغي إلا نمر مرور الكرام على تطورات الحياة وظواهر الكون والتاريخ ، وإنما نحن بحاجة أن ندرسها بعمق ، حتى نتمكن من استيعاب دروسها وعبرها ، واكتشاف قوانين الفعل الإنساني الناجح والخالد.

ودون ذلك ستتحول متغيرات الحياة إلى عبئ حقيقي يزيد من ترددنا وضياعنا المعرفي والثقافي ، ويعمق في واقعنا كل معوقات التطور وكوابح الرقي ، وعوامل الارتكاس الحضاري.

فالقراءة الواعية والتأمل الجاد ، والتفكير الحيوي في كتاب الله عز وجل وكتاب الكون (الآفاق والأنفس) من العوامل الأساسية ، التي تساهم في نمو فكر السنن الحضارية ، وثقافة العمل على قاعدة فهم وإدراك متطلبات نواميس التطور والتقدم.

٢- إن فقه سنن التطور الحضاري ، لا يتأتى دفعة واحدة ، وإنما هو بحاجة إلى تراكم في المعرفة والخبرة ، وقراءة مستديمة وواعية في تحولات الحياة ، ويقظة متواصلة ، كلها عوامل تساهم في فقه السنن الحضارية ، وقوانين التطور الاجتماعي.

وفي المقابل فإن الغفلة وغياب المسؤولية ، وتدني مستوى العلم والمعرفة والوعي ، وضعف مستوى قراءة تحولات الحياة ، كلها أسباب تبعدنا عن فهم سنن العمران الحضاري.

لذلك فإن طريق فقه سنن التقدم الإنساني ، يمر عبر تراكم المعرفة وقراءة مستديمة وواعية لتحولات الحياة ، ويقظة متواصلة تبدد الغبش في الرؤية.. ودون ذلك فإننا لن نستطيع فهم وفقه العمران الحضاري.

٣- إن الإرادة الإنسانية ، والسعي البشري المتواصل ، جزء أساسي من قوانين التطور الحضاري ، إذ لا ينفع أن ندرك نواميس التطور ، وإنما من الضروري أن نسند هذا الفهم والإدراك ، بإرادة إنسانية ، وسعي بشري متواصل ، يتجه إلى

تحويل هذه القوانين والأطر النظرية ، إلى حقائق ووقائع في حياة الفرد والمجتمع.

وبدون ذلك سيبقى فهم سنن الصعود الحضاري مجردا وبعيدا عن حقائق الواقع.

ولعلنا لا نبالغ حين القول : أن الفكر السنني هو القادر على تحريرنا من الثقافة الامتثالية والنسق الاجتراري ، الذي لا يبحث في الأسباب والعوامل المباشرة وغير المباشرة المفضية إلى الظواهر الاجتماعية والإنسانية .

فالفكر السنني يتفاعل مع الظواهر الاجتماعية والإنسانية ويبحث في أسبابها الجوهرية وعوامل تشكيلها الرئيسية ، ويسائل الواقع الذي أفضى إليها وينتقد بروح البحث الموضوعي عن حقيقة الظروف الاجتماعية والسياسية التي ساهمت بشكل أو بآخر في نشوئها .

وإننا حينما نطالب بسيادة فكر وثقافة ا لسنن فضائنا الثقافي والاجتماعي ، لكونها هي بوابة العديد من القيم والمبادئ الأساسية الرافعة لواقعنا الاجتماعي ، والطاردة للكثير من عناصر الترهل والانكفاء .

فالثقافة السننية هي القادرة على غرس قيم الحوار والنقد البناء والتثاقف والتواصل مع الآخرين على أسس العدالة والحرية. وهي التي تعيدنا إلى حركة التاريخ ، وتؤهلنا للتفاعل الإيجابي مع مكاسب العصر ، وتخرجنا من مقتضيات التكرار والاجترار وليس بالإمكان أبدع مما كان.

لذلك كله فإننا بحاجة إلى معرفة كل نواميس التغيير وسنن التقدم ، حتى تكون هي السائدة في فضائنا الاجتماعي والثقافي بعيدا عن ثقافة الخرافة ونهج الاجترار المميت لكل حيوية وإبداع.

نتائج أخيرة

وجماع القول : أن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تجري في مجالنا الإسلامي اليوم ، ليست وليدة الصدفة أو بدون مقدمات أفضت إليها .. إننا نعتقد أن هذه التحولات في كل دوائرها ومستوياتها ، هي نتاج جملة من العوامل والأسباب ولا يمكن فهم حقيقة هذه التحولات والتطورات إلا بإدراك أسبابها وعواملها التي أنتجتها وخلقتها . والفكر السنني هو ذلك الفكر الذي لا يتعامل مع الظواهر المجتمعية والتحولات الإنسانية بعيدا عن أسبابها الخاصة والعامة.

لذلك فإن فهم البيئة والمناخ الذي احتضن هذه التحولات ، يساهم في خلق المعرفة العميقة بهذه التحولات واستيعاب حركة اتجاهاتها ، وإدراك عوامل خلقها ووجودها . والإرادة التي هي سنة من سنن الله في الإنسان ، هي التي تحدد قدراتنا على فهم التحولات والاستفادة منها على نحو إيجابي في حياتنا الخاصة والعامة.

والإنسان هو الذي يصنع قدره ومصيره ، فحينما لا يأخذ أسباب النصر يصنع لنفسه الهزيمة ، ويصنع انتصاراته عندما يقبض على أسباب النصر . فحركة الكون والإنسان خاضعة لسنة الله تعالى التي تربط الأشياء بأسبابها. وعلى ضوء ما ذكر أعلاه ، نصل إلى الحقائق والنتائج التالية :

١. أن التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، ليست وليدة الصدفة ، وإنما هي نتاج لشبكة معقدة ومتداخلة من الأسباب والعوامل ، ولا يمكن فهم حقيقة واتجاهات هذه التحولات ، إلا بمعرفة أسبابها وشروطها الخاصة والعامة .. والفكر السنني الذي نطالب أن يسود واقعنا الاجتماعي والثقافي ، هو الذي يتجه إلى ربط النتائج بأسبابها ، ويعمل على تجلية الظواهر المجتمعية في إطار سياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية .

وهذا بطبيعة الحال ، يتطلب شهودا وحضورا دائما في الواقع ، ويقظة مستديمة تتجه إلى القبض على الحقائق وإدراك التحولات وهي في المهد. لذلك نجد التوجيهات الإسلامية تؤكد على أهمية معرفة الزمان وأهله واليقظة الدائمة وعدم

الغفلة .. فقد جاء في الحديث الشريف أن (العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس)[٣٣]

وفي غرر الحكم أن (أعرف الناس بالزمان من لم يتعجب من أحداثه)...

٢. إن الإرادة الإنسانية لا تتحرك بعيدا عن سنن الله في الكون والمجتمع ، بل هي تتحرك وتعمل على توفير الشروط الذاتية والموضوعية لعمل السنن في الاجتماع الإنساني . لذلك فالعلاقة جد عميقة بين سنن الله في حياة الإنسان والإرادة الإنسانية . وإن هذه العلاقة تتجلى في أن الإرادة الإنسانية تتجه إلى توفير المناخ والشروط والظروف المطلوبة لعمل السنن في الاجتماع الإنساني.

فالعديد من السنن الربانية في الواقع الإنساني منوطة ومرهونة (على مستوى العمل والتأثير) بالإرادة الإنسانية . بمعنى أن عمل هذه السنن يتطلب فعل الإرادة الإنسانية الذي

(٣٣)العلامة المجلسي ، بحار الأنوار ، ج ٧٨ ، ص ٢٦٩ ـ دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثالثة ـ لبنان ١٩٨٣م.

يتجه إلى القبض على الأسباب والعوامل المفضية إلى عمل وتأثير هذه السنن.

فالإنسان حينما أكتشف طرفا من أسرار الكون ونواميسه ، أصبح قادرا على الاحتماء من غوائل الطبيعة بتلك السنن والنواميس. فالإرادة الإنسانية حينما تتجه نحو اكتشاف سنن الله في الكون ، فإن عملية الاكتشاف هذه تصونه حاضرا ومستقبلا من الكثير من الصعوبات والهواجس . ولعل هذا ما أرادت أن تشير إليه الآية القرآنية الكريمة ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[٣٤]. فالذاكر لله هو الذي يعمر قلبه الإيمان به ويفيض إيمانه ذلك على ألسنتهم وجوارحهم ، ويحصدون من جراء ذلك الطمأنينة والأمن. الطمأنينية القادمة إليهم من إيمانهم العميق بأن الله سبحانه وتعالى يدبر أمره بناموس مستقر وفق إرادة خيرة رحيمة بالعباد. والأمن الذي يتحقق من جراء هذا الإيمان الذي يقودنا إلى أكتشاف نواميس الله في الكون والحياة ..

(٣٤)القرآن الحكيم ، سورة الرعد ، آية (٢٨).

" ولا يخفى أن شعور الإنسان بالأمن والطمأنينية في الحياة هو الشرط الضروري لكي يقدم على العمل والإنتاج و التعمير في الأرض ، ففي مناخ الأمن النفسي تنمو القدرات الذهنية وتتجه نحو الإبداع ، وتنشط القدرات الإنجازية وتتضاعف فعاليتها ويزكو إنتاجها.

وأما إذا سكنت النفس بالحزن والفزع فإن كل طاقاتها وقدراتها تنكمش عن النمو وتضعف في الأداء ، وتنكفئ النفس على ذاتها منشغلة بما أصابها مقتصرة عليه فلا يبقى لها مجال لأن تمتد بآمالها إلى التعمير ، ولهذا المعنى تحرص الأمم أول ما تحرص على توفير الأمن للناس إذ هو شرط لازم من شروط النهوض العمراني "(٣٥)

فلكي لا تصاب نفوسنا بالوهن والتعب وإرادتنا بالخور والتراجع ، فإننا بحاجة بشكل دائم إلى تجديد صلتنا بالله عز

(٣٥)مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الثانية ، العدد الثامن ، ص ٤٧ ، ذو الحجة ١٤١٧ هـ / إبريل ١٩٩٧م.

وجل ، لأنه من هذه الصلة الإيمانية العميقة ، تتجدد نفوسنا ، وتقوى إرادتنا ، وتتصلب عزيمتنا ..

فالإرادة الإنسانية الباحثة عن كشف الحقائق والسنن هي بحاجة إلى معين الإيمان الذي لا ينضب ، والقادر على مواجهة شهوات الإنسان وأهواءه التي تخضع إرادة الإنسان وتذلها. ويقول تبارك وتعالى ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾[٣٦].

فالإيمان العميق بالله تعالى يثمر في النفس شعورا بالإطمئنان ، وفي الإرادة قوة لا تلين ، وتصبح الحياة من جراء هذا ميدانا إلى المبادرة والإنجاز وفعل الخيرات.

٣. إن استيعاب التحولات وإدراك اتجاهاتها ، يتطلب التواصل مع الواقع . وذلك لأن الفكر الذي لا يتواصل مع نبضات واقعه ، ويستجيب لمتطلبات الراهن ويتناغم وحقائق الكون ، فإن مآله الإنزواء والتخلف عن ركب الحضارة

---

(٣٦)القرآن الحكيم ، سورة آل عمران ، آية (١٣٩).

والعصر .. ففي مناخات التواصل مع العصر ستطيع فكرنا أن يبلور أجوبته ومواقفه وآماله ومطامحه الحضارية.

ولا يمكننا استيعاب تحولات العصر والتواصل الفعال والحقيقي مع الواقع ، بدون توفير الشروط الثقافية والسياسية لذلك . فاستيعاب التحولات ليست مسألة بسيطة وسهلة ، كما أن التواصل النوعي مع الواقع ، يتطلب عدة ثقافية وسياسية تمكننا من القيام بذلك..

لهذا كله ينبغي توفير الشروط الثقافية والسياسية في الفضاء الاجتماعي ، التي تمكننا من استيعاب تحولات العصر والتفاعل الخلاق مع قضاياه وشؤونه . وعليه فإن الشروع في مشروعات وخطوات التنمية الثقافية والسياسية من المقدمات والشروط الأساسية التي تمكننا وتؤهلنا كأفراد وجماعات من استيعاب تحولات الراهن والتفاعل الإيجابي مع قضايا العصر والواقع.

والمجتمعات الإنسانية التي تمكنت من استيعاب تحولات راهنها والتفاعل الخلاق مع قضايا واقعها هي تلك المجتمعات التي انخرطت في مشروع التنمية الثقافية والسياسية الذي أهلّ أبناءها وبلور كفاءاتهم العقلية والفكرية والسياسية ، مما أتاح

لهم فرصة التفاعل الإيجابي مع تحولات الراهن وقضايا العصر الكبرى.

فالمطلوب على مستوى الفكر والممارسة ، الانخراط النقدي في شؤون العصر وقضاياه الكبرى والمصيرية وذلك حتى يتسنى للإنسان المسلم استيعاب علوم وقضايا عصره بمنظور نقدي ، ليوفر له المساحة المطلوبة للإستيعاب والتجاوز ، للفهم والنقد ، للمساءلة والمشاركة.

٤) ثمة علاقة دقيقة وعميقة تربط بين قدرة الإنسان على التفكير واستقلاله فيه ، وبين قيمة الحرية وممارسة مقتضياتها.

فالإنسان الذي يمتلك إمكانية التفكير المستقل ، هو ذلك الإنسان الذي يستطيع استعادة حريته وإنسانيته ، ويستثمر طاقاته وإمكاناته في سبيل تكريس نهج الحرية في الواقع الإنساني. فاستعادة الحرية بكل متطلباتها وآفاقها ، تبدأ من الإنسان نفسه ، فهو الذي يقرر قدرته على التحرر والانعتاق أو خضوعه واستغلاله واستبعاده لمراكز القوى. وذلك لأن التفكير السليم ، هو الشرط الأول للقوة في الحياة.

من هنا ركز القرآن الحكيم على أن الإيمان بالله يعطي صاحبه التحرر ، والتحرر يعطيه القوة (التمسك بالعروة الوثقى) والعلم (يخرجه من الظلمات إلى النور). ولكن أي إيمان هذا الذي يعطينا القوة والعلم. إنه الإيمان الواعي ، لا الإيمان المكره عليه فهو الآخر نوع من الاستعباد والخضوع للقوة المادية.

من هنا تحدث القرآن في بداية الحديث عن الحرية الدينية وقال (لا إكراه في الدين). فجذر الحرية ، هو أن يتحرر الإنسان من كل الضغوطات والأهواء والشهوات ، التي تدفعه إلى الانسياق وراءها. فحينما يغمر الإيمان بالله عز وجل قلب الإنسان ، ويتواصل بحب واختيار مع القدرة المطلقة ، تنمو لديه القدرة على الانعتاق من كل الأشياء التي تناقض حرية الإنسان. فطريق الحرية الإنسانية الحقيقة، يبدأ بالإيمان والعبودية المطلقة للباري عز وجل.

وذلك لأن كل الأشياء حاضره عنده ، لا يغيب شيء منها عن علمه ، لأن الأشياء مكشوفة لديه ، فلا مجال لإختباء الإنسان عن الله في أي عمل يخفيه ، أو سر يكتمه أو خطأ

يستره ، لأن الإخفاء والكتمان والستر معان تلتقي بالحواجز المادية التي تحول بين الشيء وبين ظهوره مما لا مجال لتصوره في ذات الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولعل هذا الإحساس هو الذي يتعمق في وعي الإنسان من حركة إيمانه فيمنعه عن الجريمة الخفية ، والمعصية المستورة ، والنيات الشريرة التي تتحفز للاندفاع والظهور.

من هنا وقفت النصوص القرآنية ضد الإكراه والسيطرة ، ودعت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التحرك في أجواء الإبلاغ والإقناع وحركة حرية الفكر والتعبير. إذ قال تعالى ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾.. (الكهف ، الآية ٢٩).. وقال عز من قائل ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾ (الغاشية ، الآية ٢٢).. وقال تبارك وتعالى ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾.. (يونس ، الآية ٩٩)..

وقد تحدث الأستاذ (جودت سعيد) في كتابه (لا إكراه في الدين - دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي) عن مجموعة من الفوائد من آية (**لا إكراه في الدين**) منها :

١. إنها في ظاهرها حماية للإنسان الآخر من أن يقع عليه الإكراه من قبلك ، ولكنها في باطنها حماية لك أيضا من أن يقع عليك الإكراه ، فهي حماية للآخر وحماية للذات من أن يقع على كل منهما الإكراه.

٢. يمكن فهم هذه الآية على أنها إخبار وليس إنشاءً، أي يمكن أن تفهم على أنها نفي وليست نهيا ، ويكون بذلك معناها إخبارا بأن الدين الذي يفرض بالإكراه لا يصير دينا للمكره فهو لم يقبله من قلبه ، والدين في القلب وليس في اللسان. فهي بهذا الشكل إخبار بأن الدين لا يتحقق بالإكراه ومن يكره إنما يقوم بعمل عابث لا أصل له.

هذا معنى الآية حينما نفهمها على أنها إخبار وليس إنشاءا أو أمرا ، كما يمكن أن نفهم الآية على أساس الإنشاء أي أن تفهم على أنها نهي عن الإكراه ، لأنه لا يليق بالعاقل أن يقوم بعمل عابث ، ولأن فرض الإيمان والدين بالإكراه عبث فجدير

أن ينهانا الله عنه ، فيكون المعنى نهيا عن ممارسة الإكراه للآخر ، ونهيا أيضا لنا عن أن نقبل الإكراه والخضوع له.

فرشد الإنسان فردا ومجتمعا ، هو من جراء التزامه بحريته واحترامه التام لحريات الآخرين. فحينما تنتفي كل الضغوطات والإكراهات ، يتحقق مفهوم الرشد في الواقع الخاص والعام.. فالحرية بكل ما تحمل من معاني إنسانية نبيلة وقيم تعلي من شأن الإنسان وكرامته ، وتحميه من كل نزعات الاستفراد والإقصاء والنبذ والإكراه ، هي بوابة الرشد ووسيلته في آن. وهي التي تخرج الإنسان من الغي وتخلق حقائق الاستمساك بالعروة الوثقى.

والمجتمع الذي يمارس حياته السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، بعيدا عن كل أشكال الإكراه والعنف ،هو المجتمع الرشيد الذي يدافع عن حقوقه ومكاسبه بالحرية. وبها أيضا يصون حرمات الآخرين ومكاسبهم.

والتاريخ يحدثنا أن كل من يمارس الإكراه والعنف للدفاع عن ذاته ، لا ينجز مراده ولا يحقق هدفه ، بل ترتد عليه

هـذه الممارسـات أكثـر سـوءا ويـدخل فـي أتـون النزاعـات والحروب والعنف والعنف المضاد.

إن الاتحاد السوفيتي لم يستطع أن يحمي ذاته من التشـرذم والانقسـام والتلاشـي ، مع العلـم أنـه يمتلـك أعتـي الأسـلحة وأطورها. فهذه الأسلحة الفتاكـة لـم تمنـع الشـعوب المنضـوية تحت لواء الاتحاد السوفيتي من النهوض ورفض كـل أشـكال القهر والإكراه.

فالحضارات لا تبنـى بـالإكراه ، كمـا أن الأفكـار لا تنتقـل بالقسـر والإكـراه. فمـا أكثـر الإمبراطوريـات التـي انهـارت وتلاشت وأصبحت في ذمة التاريخ ، بفعل اعتمادها واسـتنادها على القهر والإكراه.

وفي المقابل نجد أن هناك أمما ودولا صمدت فـي وجـه كل عمليات القمع والقسر والإكراه ، لأنها تدير شؤونها وتسـير أمورهـا بحريـة وديمقراطيـة ، وبعيـدا عـن كـل أشـكال القهـر والإكراه.

فالحيـاة دائمـا لكـل أمـة ومجتمـع يـدار بالحريـة ، وينبـذ الإكـراه بكـل صـنوفه وأشـكاله ومسـتوياته. ويرتكـب حماقـة

تاريخية كبرى كل من يسعى إلى إدخال غيره في دينه أو مذهبه أو حزبه بالإرغام والإكراه.

لذلك فإن الحرية من القيم الأساسية في حركة الإنسان الفرد والجماعة ، وبها يقاس تقدم الأمم وتطورها. إذ لا يمكن أن يتحقق التقدم إلا بالتحرر من كل معوقاته وكوابحه. والحرية هي العنوان العريض للقدرة الإنسانية على إزالة المعوقات وإنجاز أسباب وعوامل النهوض والإنعتاق.

لذلك نجد أن الأنبياء جميعا حاربوا الاستبداد والإكراه ، ووقفوا في وجه الفراعنة ، وعملوا من مواقع مختلفة لإرساء دعائم الحرية للإنسان.

ولقد فك الأنبياء جميعا العلاقة بين الفكر والعنف ، فحرروا معركة الأفكار من معركة الأجساد ، والله تعالى حمى الأجساد من أن يعتدى عليها من أجل الأفكار ، فلم يعط لأحد الحق على جسد الآخر مهما كانت فكرته. وفي سبيل نيل الحقوق والحريات ، لم يشرع الله سبحانه وتعالى للأنبياء ممارسة الإجبار والإكراه ، وإنما حدد مهمتهم ووظيفتهم في الدعوة بالموعظة الحسنة والتبشير والنذير.

فالوظيفة الكبرى هي هداية البشر ، بوسائل عقلية – سلمية ، بعيدة كل البعد عن كل أشكال الضغط والقوة والإكراه.

وعلى هدى هذا نقول : إنه لا يجوز التضحية بحريات الأفراد تحت مبرر معارك الخارج وتحدياته الحاسمة. إذ أنه لا يمكن أن نواجه تحديات الخارج بشكل فعال ، إلا إذا وفرنا الحريات والحقوق لجميع المواطنين.

ولعلنا لا نعد والصواب ، حين القول بأن مجالنا العربي والإسلامي في العقود الخمسة الماضية قد قلب المعادلة. إذ سعت نخبته السياسية السائدة ، إلى إقصاء كل القوى والمكونات تحت دعوى ومسوغ أن متطلبات المعركة مع العدو الصهيوني ، تتطلب ذلك. وأصبح شعار (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) هو السائد. ولكن النتيجة النهائية التي وصلنا إليها جميعا حاكما ومحكوما ، أن هذا الخيار السياسي لم يوصلنا إلا إلى المزيد من التدهور والانحطاط ، وبفعل هذه العقلية أصبح العدو الصهيوني أكثر قوة ومنعة ، ودخلنا جميعا في الزمن الإسرائيلي بكل تداعياته الدبلوماسية والسياسية والأمنية والثقافية والاقتصادية.

فتصحير الحياة السياسية والمدنية العربيـة والإسـلامية ، لـم يزدنا إلا ضـياعا وتشـتتا وضـعفا. ولقـد دفـع الجميـع ثمـن هـذه الخطيئة التاريخية. لذلك آن الأوان بالنسـبة لنـا جميعـا أن نعيـد صياغة المعادلة. فلا انتصار تاريخي على العدو الصـهيوني ، إلا بإرتقاء حقيقي ونوعي لحياتنا السياسية والمدنية. فإرساء دعائم الديمقراطيـة وصـيانة حقـوق الإنسـان. كـل هـذه الممارسـات والمتطلبات من صميم معركتنا التاريخية والحضارية. وانتصارنا على العـدو الخـارجي ، مرهـون إلـى قـدرتنا علـى إنجـاز هـذه المتطلبات في الداخل العربي والإسلامي.

فالإكراه الديني والسياسي ، لا يصـنع منجـزات تاريخيـة ، وإن صـنعت سـرعان مـا يتلاشـى تأثيرهـا مـن جـراء متواليـات الإكراه وإمتهان كرامة الإنسان.

فآراء الإنسان مصونة ، بمعنـى أن الإنسـان لا يقتـل بسـبب آرائه وأفكاره. والآراء والأفكـار والقناعـات ، لا تواجـه بـالقوة الماديـة أو اسـتعداء الآخـرين ، وإنمـا بـالرد الفكـري والحـوار المتواصل وبيان أوجه الخطل والضعف في الآراء المتداولة..

لذلك كله فإن الحرية قبل أن تكون أشكالا سياسية ونصوصا دستورية ، هي خروج كل فرد فينا عن أنانيته وأفقه الضيق ومغادرة تلك الأفكار الآحادية والإقصائية والإستغنائية ، التي لا تزيدنا إلا بعدا عن الديمقراطية ومتطلباتها الفكرية والمجتمعية.

لذلك فإن النواة الأولى للاستقرار والتطور ، هي الاحترام العميق للآخرين مشاعرا وأفكارا ووجودا ، ومساواة الآخرين بالذات ، ونبذ كل أشكال ممارسة الإكراه.

وإننا اليوم وفي كثير من مواقعنا ، أحوج ما نكون إلى رفع شعار (**لا إكراه في الدين**) والعمل على تحويله إلى مشروع مجتمعي ينظم حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية ، ويرفع الغطاء الديني عن كل الممارسات العنفية والإرهابية ، التي لا يقرها عقل ولا دين ولا تنسجم وثوابت الأمة.

فلننبذ من فضائنا السياسي والاجتماعي والثقافي ، كل الممارسات الإكراهية والإقصائية ، ونبني راهننا على أسس الحرية واحترام التعدد والتنوع ، ونفسح له المجال لممارسة دوره ووظيفته في البناء وتعزيز خيار السلم والتعايش الأهلي.

الفهرس

